CEMEIA
Centre Euro-Méditérranéen
d'Etude de l'Islam Actuel

المملكة المغربية
مؤسسة الملتقى
قيم . تنمية . سلام

الطريقة القادرية البودشيشية
مشيخة الطريقة

ورقة تقديمية

الدورة السابعة عشر

للمُلتقى العالمي للتصوف 17

LA 17ÈME RENCONTRE MONDIALE DU SOUFISME

ⵜⵜⴰⵎⵓⵏⵉⵜ ⵉ 17 ⵎⴰⴹⵍ ⵏⵜⵎⴰⴷⴷⴰⵙⵜ ⵏⵜⵚⵓⴼ

التصوف و سؤال العمل

من إصلاح الفرد إلى بناء المجتمع

أيام 13/12/11/10/9/8 ربيع الأول 1444

الموافق لـ 10/9/8/7/6/5 أكتوبر 2022

يحيلنا الحديث عن سؤال العمل إلى جملة من الإشكالات التي أصبحت تعرفها مجتمعاتنا المعاصرة؛ ومنها أنها أضحت محكومة بثقافة القول على حساب ثقافة العمل، فأنت تجد اليوم كثير من يحدثك عن الإصلاح وعن الفضيلة وعن القيم وعن الدين وعن غيرها من الأسس البانية، لكن قلما تجد من يلتزم العمل بذلك، وهذا من المعضلات الخطيرة التي أصبحت تحكم جل ممارساتنا الإنسانية في مختلف تجلياتها وتمظهراتها، بحيث صار الإنسان اليوم يعيش ازدواجية فيما بين البعدين، وهو مما عمت به البلوى، حتى إننا صرنا نجد الأمر يطال كثيرين ممن هم في دائرة الممارسة الدينية؛ إذ أصبحوا بدورهم يعيشون هذه الازدواجية والانفصال فيما بين القول والعمل، والواقع يشهد على تفشي هذه المعضلة في مجتمعاتنا الإسلامية قبل غيرها من المجتمعات الإنسانية الأخرى.

ومن المعلوم أن الممارسة الدينية هي بالأساس ممارسة عملية تعتمد على العمل بشكل كبير، فبالعمل ينصلح حال المتدين، وبه يحصّل ثمرات التدين ويترقى في مراقيه ومراتبه، وبانعدام هذا العمل تتهدم أركان هذه الممارسة وتنخرم بناءاتها. فالقول لوحده لا يكفي لممارسة التدين، فهو يبقى مجرد قول إلى أن يصدقه العمل، ولذا كانت مناقضة القول للعمل أو تخلفهما عن بعضهما البعض من الأمور المذمومة شرعا، ولذا قال الحق تعالى في محكم تنزيله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ [الصف: 3]. وحينما نطلق لفظ "القول"؛ فيندرج ضمنه القول العام مما يتداوله الناس في مخاطباتهم، والقول الخاص الذي يندرج ضمن سلك العلم؛ لأن العلم بدوره يندرج ضمن ثقافة القول ما لم يصدقه عمل، ولذا نجده مشمولا أيضا بنفس الوصف الشرعي السابق، ولذا قيل: "العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون"، فحق العلم والعمل أن يتلازما، لأن العلم كالأس والعمل كالبناء؛ وكما لا يغني أسّ ما لم

يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أسّ، كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم. بل وجب أن يكون العمل أكثر من العلم، ولذا قال الصوفي المغربي مولاي العربي الدرقاوي: "**أصبع من العلم وذراع من العمل**"، لكن مع كامل الأسف أصبح الأمر معكوسا اليوم، ذراع من العلم -أو لنقل من القول- وأصبع من العمل.

إن العمل الذي نقصده هنا بكونه مطلوبا ومرغوبا ليس مطلق العمل، وإنما العمل الصالح الذي تكون له آثار وثمرات طيبة على أرض الواقع، فهذا هو الذي يباركه الله تعالى ويرفعه مصداقا لقوله عز وجل: **(والعمل الصالح يرفعه)** [فاطر:10]، خلافا لعمل المفسدين لقوله تعالى: **(إن الله لا يصلح عمل المفسدين)** [يونس:81]، فالعمل الصالح هو الذي تتحصل به الآثار الطيبة ويقع به النفع، وهو ما كان مصاحبا للإيمان لقول الله تعالى: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)** [النحل:97]، فالعلم والعمل يشترط فيهما أن يكونا صالحين، وإلا فنحن نرى اليوم كيف أن العلم والعمل أصبحا يسخران للفتك بالبشرية وبسط النفوذ والسيطرة والتخريب، فكثير من الأعمال لا تثمر الآثار الطيبة المرجوة، ولذا كان أساس العلم والعمل تحصيل النفع وضمان المصالح، فهذا الذي يُقصد ويطلب. كما أن آثار ذلك لا تقتصر على عاجل الإنسان بل تتعداه إلى آجله، ولا تقتصر على ذاته، وإنما تتعداها إلى غيره من الذوات، ولو أن الإنسان المعاصر التزم بهذا المعنى حق الالتزام، لاتجهت السلوكيات والبحوث والكشوف العلمية اتجاهات أخرى أكثر نفعا وإيجابية، ولاتّقينا بها كثير من الأخطار والشرور التي أصبحت تتهدد البشرية في أفق ما تحياه من تقدم علمي وتقني هائل.

إن قضية العمل التي نطرحها هنا -وخلافا لما قد يبدو للبعض- قضية محورية تتداخل فيها العديد من القضايا والإشكالات التي يحياها الإنسان اليوم، ومن هذه القضايا؛ القضية الإيمانية والتدينية بحكم التراجع الكبير الذي حصل في منسوب

التدين، بسبب الانفصال والابتعاد الحاصل لدى فئة كبيرة من الشباب عن هذا العمل التديني، والتجرد عن كل ما يمت بصلة لما هو إيماني وغيبي والارتباط بالأبعاد المادية المجردة، وهو ما خلّف موجات من الإلحاد التي أصبحت تنتشر يوما بعد يوم بشكل كبير وخطير. إلى جانب ارتباط المسألة بالأزمة القيمية والأخلاقية التي تعرفها مجتمعاتنا، بفعل الخلل الذي لحق بالمكون العملي الذي أثر بالضرورة على المكون الأخلاقي باعتباره أحد نتائجه وثماره؛ إذ معلوم أن من آثار العمل الديني وثماره تفعيل المنظومة القيمية والأخلاقية وتنزيلها على أرض الواقع. ثم نجد أن المسألة لها ارتباط في جانب آخر بالمشكل التنموي والاقتصادي، والذي يظهر في مستوى الإنتاجية والمردودية التي أخذت تتراجع خاصة مع تفشي ثقافة التواكل والكسل بدل ثقافة الإنتاج والعمل والاجتهاد. إلى جانب مشاكل أخرى كثيرة؛ كالمشكلة البيئية خاصة مع انتشار السلوكيات التخريبية تجاه هذا المكون الحيوي مما صرنا نرى آثاره جلية على واقعنا. والحق أن هذه الأزمة وغيرها من الأزمات ما هي سوى تجل للأزمة الحقيقية التي يعيشها الإنسان، وهي أساسا ترتبط بهويته القيمية والأخلاقية والروحية التي تؤطره وتوجهه، فالعالم اليوم يعيش أزمة في القيم؛ وهذه الأزمة ما هي سوى نتاج للتجرد عن العمل الصالح، بفعل هيمنة الثقافات الجديدة التي دفعت بالفرد للتمركز حول مصالحه الذاتية وطموحاته الشخصية، والزجّ به في عالم المادة والاستهلاك، وتجريده من قيمه الروحية والإنسانية التي تنأى به عن كثير من السلوكيات الضارة به وبمحيطه.

إن الأعمال التي ننشدها كي تكون أعمالا صالحة لابد أن تتوفر فيها جملة من الشروط؛ أولا في صورتها الظاهرة بأن تكون على الوجه الشرعي الصحيح، ثم ثانيا في بواعثها الباطنية؛ والمتمثلة في النيات والمقاصد الباعثة عليها بأن تكون هي الأخرى صحيحة، وأخيرا في الثمرات والنتائج المحصّلة منها، فهذه ثلاثة أسس كبرى

ينبني عليها العمل الصالح. ويبقى التركيز والمعوّل على النية؛ لأنها مدار تلك الأعمال، فهي إما أن تفسدها وإما أن تصلحها، وفي الحديث: **"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى"** [صحيح البخاري]. فالإشكال ليس في مجرد العمل وحسب، وإنما في المقاصد الباعثة عليه، إذ لابد أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، وفي الحكم: "الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها". وهذا الجانب القلبي هو ما اختص التصوف برعايته وخدمته من ضمن سائر العلوم الشرعية الأخرى، ولذا يسمى ب"علم النية"، ومن هذا الاعتبار كان من أقوى البواعث التي يتحصل بها العمل الديني في أتم صوره، وأرقى تجلياته، بما يترتب عليه من أبعاد قيمية وروحية وأخلاقية. فلقد استطاع التصوف طيلة تاريخه أن يبني لمنظومة متكاملة من العمل الديني الذي كان له الأثر البالغ في الساحة الدينية والمجتمعية، في جميع المجالات التي يغطيها هذا العمل، فهو بقدر ما أسهم في إصلاح الأفراد عبر منهجه التزكوي الذي يتركز في إصلاح القلوب، بقدر ما دفعهم للانخراط في بناء المجتمع.

هذا التكامل بين خوض تجربة التربية الصوفية و الممارسة الفعلية العملية لمقتضياتها تفتح الآفاق أمام قلب السالك للرقي و التزكية ليصبح إنسانا متشبعا بالقيم و الأخلاق، صالحا لنفسه و لغيره فاعلا في مجتمعه واعيا بتحديات عصره مساهما في بناء و تنمية وطنه، و منتجا لهذه القيم الأخلاقية أينما حل و إرتحل.

ولطالما كان المغرب وما يزال -بما يحمله من موجهات عميقة لهذا المكون الروحي والديني الرشيد- يدفع بقوة نحو العمل الصالح، ويظهر ذلك في المبادرات الخالدة التي تركها أسلافنا، وأيضا في المسيرة التنموية التي ما تزال تتواصل إلى اليوم تحت القيادة الرشيدة لمولانا أمير المؤمنين حفظه الله الذي ما فتئ يطلق المبادرات والمشاريع ذات البعد التنموي والإنساني سواءا على المستوى الوطني أو الأفريقي والدولي، كلها ضمن سلسلة الأعمال الصالحة التي ينفع الله بها البلاد و العباد.

محاور الملتقى:

1: سؤال العمل في الإسلام: مداخل نظرية

2: ثنائية العلم والعمل في الإسلام: من طلب معاني الأقوال إلى تحصيل ثمرات الأعمال

3: العمل الديني وفق منظور تجديدي

4: في الحاجة إلى ثقافة العمل

5: العمل الصوفي ومحدداته الشرعية والسلوكية

6: التصوف وثقافة العمل: الأبعاد السلوكية والعملية والتزكوية

7: نماذج تاريخية وواقعية من العمل الصوفي

8: العمل الصوفي ودوره في إصلاح الفرد

9: العمل الصوفي ودوره في بناء المجتمع

10: العمل الجهادي لشيوخ التصوف

11: التصوف والعمل الدبلوماسي الموازي

12: العمل الصوفي وأبعاده التنموية والاقتصادية

13: العمل الصوفي وتحقيق الأمن البيئي

14: التصوف والعمل الاجتماعي والتضامني

15: إسهام التصوف في خدمة الثقافة والفكر الإسلاميين

16: العمل الصوفي وأبعاده الفنية والجمالية

17: العمل الصوفي والتأسيس للتفاعل الحضاري وحوار الأديان.